آفاق قرآنية

في رحاب سورة ﴿التوحيد﴾

✍ الاستاذ عز الدين سليم

❑ بسم اللّه الرّحمٰن الرّحِيم: ﴿ **قُل هُو اللّه أحد ۞ اللّه الصّمد ۞ لم يلدْ ولم يولدْ ولم يكن له كُفواً أحد** ﴾.

تمهيد:

هـذه السورة المباركة سميت سورة التوحيد لانطوائها على عقيدة التوحيد للّـه عـز وجل دون غيرها من مبادىء الاسلام الحنيف، ودعيت بسورة الاخلاص لأن المتمسك بالحقائق الكبرى التي حملتها عن يقين واعتقاد يكون مؤمناً مخلصاً في ايمانـه، وأنهـا سبيل اللـه الى النجـاة والخلاص في الآخرة لمن يتمسك بها عن يقين وصدق.

وتدعى هذه السورة الكريمة (نسبة الرب) او (نسب الرب ونعته)، حيث روي عن رسول الله(ص) قوله: (لكل شيء نسبة، ونسبة الرب سورة الاخلاص).

فان بعضاً من اليهود أو مشركي مكة جاؤوا الى رسول الله(ص)، وسألوه أن ينعت لهم الله جلّ وعلا، و يصفه فقالوا: انسب لنا ربك، فلبث ثلاثا لا يجيبهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُل هُو اللّه أحد﴾[1]

وفي هذا المعنى روايات كثيرة عند مختلف فرق المسلمين، وجماعاتهم.

هذا وتدعى هذه السورة أيضاً بـ(قل هو الله أحد..) اعتماداً على ابتدائها بهذه الكلمات الأربع، الطافحة باليقين.

وحيث ان سورة الاخلاص تحمل نسبة الرب جلّ و علا، فان الاحاديث الشريفة قد تواترت عن المعصوم عليه الصلاة والسلام بأهميتها، ومكانتها العالية في ميزان الاسلام، والهدى، والعرفان..

وقد ورد الحث الاكيد على قرائتها، وتعاهد أمرها ما استطاع المسلم الى ذلك سبيلاً، وهذه مصاديق من الاحاديث الشريفة حول ذلك:

فعن أبي الدرداء عن رسول الله(ص) قال: (أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلةٍ ثلث القرآن؟ قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: «قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»)[2]

وروي عن عائشة: ان رسول الله(ص) بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم بـ(قل هو الله أحد)، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول

---

(١) التوحيد / للشيخ ابي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه (المعروف بالصدوق ٣٨١هـ) ص ٩٣ ومجمع البيان للشيخ الطبرسي (تفسير سورة التوحيد)، واسباب النزول لجلال الدين السيوطي المطبوع بهامش تفسير الجلالين.

(٢) مختصر صحيح مسلم للمنذري ٣١٩:٢ ط الكويت.

الله(ص)، فقال: (سلوه لأي شيءٍ صنع ذلك) فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله(ص): (اخبروه أن الله يحبه).[1]

وورد عن الامام جعفر بن محمد الصادق(ع) عن آبائه عليهم الصلاة والسلام: ان النبي(ص) صلى على سعد بن معاذ، فقال: لقد وافى من الملائكة للصلاة عليه سبعون ألف ملك، وفيهم جبرئيل، يصلون عليه، فقلت: يا جبرئيل بِمَ أستحقّ صلاتكم عليه؟ قال: بقراءة (قل هو الله أحد، قائماً، وقاعداً، وراكباً، وماشياً، وذاهباً، وجائياً).[2]

وقد انطوت كتب التفسير، والسنن، وفضائل القرآن الكريم على أحاديث غاية في الأهمية تؤكد أهمية هذه السورة المباركة، ومكانتها، وعلو شأنها.

لماذا نزلت هذه السورة المباركة؟

ترتبط عملية نزول الآيات الكريمة بأحد عاملين: فأمّا أن تنزل الآيات المباركة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم كبرنامج للهداية والتوجيه وتنوير العباد على شكل مبادرة دون أن تنتظر وقوع حوادث أو مشاكل تتطلب نزول الآيات، كما في حالة دعوة الناس لتوحيد الله عز وجل وإثارة انتباههم الى ما بثّه الله عز وجل من نعم، وآثار في هذا الوجود الرحيب، أو في حالة الحديث عن الآخرة، والجنة، والنار، ومهام الرسول، والرسالة، وأمثال ذلك. والعامل الثاني، لنزول الآيات الكريمة: هو وقوع حوادث، أو مشاكل، أو استفسارات، أو تحديات للرسالة، والرسول(ص)، والامة، مما يتطلب أن تتنزل كلمات الله عزّ وجلّ لمعالجة المواقف، والاحداث، والمشاكل، والتساؤلات.

---

(١) مختصر صحيح مسلم للمنذري ٣١٩:٢ ط الكويت.

(٢) التوحيد: للشيخ الصدوق ص ٩٥.

وهـذه الحـالة التي تستـدعي نـزول الآيـات من رب العـالمين على رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، تسمى أسباب النزول في مصطلح المسلمين.

فأسبـاب النـزول ـ بنـاء على ذلك ـ قضايـا وقعت في عصـر البعثة الزاهر، فاستدعت نزول الآيات القرآنية لمعالجتها و انارة الطريق بشأنها، وازالة الملابسات اذا كانت هناك ملابسات حولها.(١)

وسـورة الاخـلاص، صحيح أنها انطوت على أعظم مقومات الرسالة وهو «التوحيد» و «نسبة الرب»، وصفاته العليا، والمعاني التي صدعت بها، وأشرقت بها حروفهـا المبـاركة والتي هي حـاجة، مـركزية للرسـالة، وأتباعها الذين لابد لهم من التشبع بروحهـا، ومـواجهة المشـركين بمضامينها العظيمة، الاّ أن نزولها ـ كما يفيد تاريخ القرآن ـ قد تزامن مع تساؤلات الكفار والمشركين، من أنماط مختلفة، وعلى شكل جماعات أو أفراد.

ونشيـر الى بعض تلك التساؤلات التي سبقت نزول سورة الاخلاص، كما حكاها تاريخ نزول القرآن الكريم:

ـ عن أُبي بن كعب، وجابـر بن عبـد اللـه الانصـاري: ان المشـركين، قالـوا لرسول الله(ص): انسب لنا ربك، فنزلت السورة.(٢)

ـ وعن الامـام جعفـر بن محمـد الصـادق(ع): ان اليهـود سألـوا رسـول الله(ص)، فقالوا: انسب لنا ربك، فلبث ثلاثاً لا يجيبهم، ثم نزلت هذه السورة.(٣)

ـ وفي رواية عن قتـادة، والضحـاك، ان أحباراً من اليهود سألوا النبي(ص)

---

(١) مختصر علوم القرآن: الدكتور محمد علي الرديني ط الجزائر ص ٥٨ – ص٥٩.

(٢) مجمع البيـان في تفسير القرآن – تفسير سورة الاخلاص واسباب النزول للسيوطي بهامش تفسير الجلالين – ط بيروت.

(٣) التـوحيـد للشيخ الصدوق ص ٩٣ ومثلـه في اسبـاب النـزول للسيوطي باسناد عن ابن عباس و سعيد وغيرهما.

ذلك.

- وعلى قول: ان عبدالله بن سلام سأل النبي(ص) ذلك.

- وقيل: ان السائل كان عامر بن الطفيل، وأربد بن ربيعة وهناك روايات أخر.[1]

ويبدو أن الاختلاف في زمان نزول السورة ومكانها هو الذي تسبب في اختلاف أقوال المفسرين بشأن هذا النزول ومكانه، حيث قال بعض: انها مكية، وقال بعض آخر: انها مدنية.[2] اعتماداً لكل من الرأيين على بعض الآثار دون بعض... فمنهم من يميل الى أن الذين سألوا النبي(ص) عن نسبة الرب كانوا نفراً من قريش - كما هو رأي ابن عباس(رض)[3] وآخرين، فذهبوا الى أن السورة نزلت في مكة.

ومنهم من قال الى أن الذين جادلوا النبي(ص) كانوا فريقاً من اليهود، فوجدوا ذلك أمارة على أن السورة(مدنية) وتجدر الاشارة الى أن بعضاً ممن روى أن السائل كان عبدالله بن سلام ذكر أيضاً أنه سأل النبي(ص) في مكة، فأسلم بعد نزول السورة، الاّ انه كتم اسلامه.[4] فأظهره بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى المدينة المنورة.

---

(١) انظر الطبرسي في المجمع باب (النزول) واسباب النزول للسيوطي بهامش تفسير الجلالين.
(٢) انظر الكشاف للزمخشري (تفسير سورة الاخلاص) والميزان ج ٢ (تفسير سورة الاخلاص) ومجمع البيان للشيخ الطبرسي (تفسير سورة الاخلاص)، واسباب النزول للسيوطي (تفسير سورة الاخلاص) وتفسير شبر (سورة الاخلاص).
(٣) الكشاف ج٤ ص٨١٧.
(٤) مجمع البيان ج ١ ص ٥٦٤.

وقفة أمام المضامين:

إن أهم أمر حرصت «سورة الاخلاص» المباركة على إرساء قواعده في فكر الانسان المسلم، وعقله وضميره، هو **أحدية الله عز وجل** في وجوده، فليس هناك حقيقة الاّ حقيقته، وكل موجود انما يستمد وجوده منه،[1] ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة العظمى **الاحدية الصمدية**، فلا يشاركه أحد في ذاته، أو صفاته، أو أفعاله تعالى الله علواً كبيراً، وما يملكه أحد من خلقه من شيء انما هو مستمد من الله عز وجل، يفيض من فضله على من يشاء بما يشاء..

ثم إن أحدية الله عز وجل، ليست في اطار ذاته ووجوده عز وجل فحسب، وانما أحدية الفاعلية كذلك، فليس أحد سواه فاعلاً لشيء في هذا الوجود او فاعلا فيه دون أن يفيض عليه الله عز وجل من فضله، سواء أكان ملكاً مقربا، أو نبياً مرسلاً، أو غيرهما.

ان استعمال القرآن الكريم للفظة (**أحد**) فيها كل تلك الدلالات المباركة المذكورة دون لفظة (واحد).

« **أحد** وصف مأخوذ من الوحدة كالواحد غير أن الاحد انما يطلق على مالايقبل الكثرة لا خارجاً ولا ذهناً ولذلك لايقبل العد، ولا يدخل في العدد بخلاف الواحد فأن كل واحد له ثانٍ و ثالث و ... اما خارجاً واما ذهناً بتوهم، أو بفرض االعقل فيصير بانضمامه كثيراً، وأما الأحد فكل ما فرض له ثانياً كان هو ، هو لم يزد عليه شيء».[2]

«وانما قال (احد) ولم يقل واحد لأن الواحد يدخل في الحساب ويضم اليه آخر واما الأحد فهو الذي لايتجزأ) ولا ينقسم في ذاته، ولا في معنى صفاته،

---

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب ج ٦ (تفسير سورة الاخلاص) والميزان للعلامة الطباطبائي.
(٢) الميزان – العلامة الطباطبائي ج ٢ ص ٣٨٧.

ويجوز أن يجعل للواحد ثانٍ ولا يجوز أن يجعل للأحد ثانياً لأن الاحد يستوعب جنسه بخلاف الواحد ألا ترى انك لو قلت فلان لايقاومه واحد جاز أن يقاومه اثنان، ولما قلت لايقاومه أحد لم يجز أن يقاومه اثنان، ولااكثر فهو ابلغ».[1]

واذا كان الله عز وجل هو الموجد لكل موجود، فكل ذي وجود محتاج اليه ومتوجه اليه، وسائر نحوه، الامر الذي تفيده لفظة «**الصمد**»، وما أجمل هذه اللفظة، وما أدقها، وأعلاها شأناً فلكي تنسجم في عطائها مع «**الاحدية**» المطلقة لله عز وجل كانت (صمد) محلاة بالالف واللام لينحصر كل عطاء به جلّ وعلا، وينحصر احتياج الخلق اليه دون سواه.

ومن أجل ذلك، فأن مدلول «**الصمد**» لغة، القصد مع الاعتماد، ومهما تكاثرت معاني (الصمد) الاّ انها تنتهي الى منبع واحد، ومآل واحد.

فالصمد هو السيد المصمود اليه، المقصود في الحوائج كلها.[2] وهكذا فان كل شيء قائم بالله مستند اليه، ومستلهم منه وجوده وحاجته، مفتقر في وجوده اليه: ﴿**ألا له الخلق والامر**﴾[3] ﴿**وان الى ربك المنتهى**﴾[4] ﴿**قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء و تنزع الملك ممن تشاء و تعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير**﴾[5] وقد ورد عن جابر بن يزيد الجعفي قال: (سألت أباجعفر عليه السلام عن شيء من التوحيد، فقال: ان الله تباركت اسماؤه التي يدعى بها وتعالى في علو كنهه واحد،

---

(١) مجمع البيان – للشيخ الطبرسي ج ١ ص ٥٦٤.
(٢) في ظلال القرآن ص ٤٠٠٤ – الميزان للطباطبائي مصدر سابق ص ٣٨٨.
(٣) الأعراف – ٥٤.
(٤) النجم – ٤٢.
(٥) آل عمران – ٢٦.

توحد بالتوحيد في علو توحيده، ثم أجراه على خلقه.[1] فهو واحد، صمد، قدوس، يعبده كل شيء ويصمد اليه كل شيء، ووسع كل شيء علما).[2]

وعن داود بن القاسم الجعفري قال: (قلت لأبي جعفر عليه السلام «وهو ابو جعفر الجواد» جعلت فداك ما الصمد؟ قال: السيد المصمود اليه في القليل والكثير).[3]

وبعد أن أثبتت السورة المباركة حقيقة الوحدانية لله عز وجل في آيتين منها، نفت في نصفها الآخر ما لاينسجم مع الوحدانية، ويضادها..

فاذا كان من مقتضيات وحدانية الله عز وجل: الاحدية والصمدية كمقومات اساسية لمعنى التوحيد، فان من الامور التي تكون منفية بشكل مطلق أن الله سبحانه وتعالى لم يلد أحداً، ولم يلده أحد.

فهو جلّ وعلا لايكون متولداً من شيء او مشتقاً منه بأي صفة من صفات التولد، او الاشتقاق، كما اعتاد المشركون عبر التاريخ أن يظنوا، كأن يتصوروا لله أبناء أو بناتٍ مثلا.

كما ان من خصائص هذه الوحدانية ان الله عز وجل ليس له شريك في ملكه، في الخلق او التدبير، كما ليس له مضاد في الملك، ولا منازع في الامر، لاشبيه يشاكله، ولا ظهير يعاضده.

﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾، فهو تعالى مستقل في الخلق وتدبير امور خلقه، مستغن عمن سواه من خلقه، كفاءة في الذات والصفات والافعال، لايشاركه احد في شيء من ذلك ولايناظره، ولايشبهه «تعالى أن يكون له كفؤ،

---

(١) اجراء التوحيد على الخلق هو فطرهم بفطرة التوحيد كما ذكر في الكتاب وفسر به في الاثار، و اليه يصمد كل شيء بالفطرة وان غشيتها في البعض كدورات العلائق العادية فغفلوا عنها.

(٢) التوحيد - للشيخ الصدوق ص ٩٤.

(٣) نفس المصدر السابق ص ٩٤.

فيشبّه به».[1]

وما أحسن و أوضح ما أدلى به سبط النبي الامام ابو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام في رسالة وجهها الى أهل البصرة حين كاتبوه يسألونه عن ماهية الصمد، فقد حدث الامام محمد بن علي بن الحسين عن أبيه: أن أهل البصرة كتبوا الى الحسين بن علي عليه السلام يسألونه عن الصمد فكتب اليهم: بسم الله الرحمن الرحيم، اما بعد فلاتخوضوا في القرآن، ولاتجادلوا فيه، ولاتتكلموا فيه بغير علم، فقد سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار، وان الله سبحانه قد فسر الصمد فقال: «الله احد، الله الصمد» ثم فسره فقال: «لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد». «لم يلد» لم يخرج منه شيء كالولد وسائر الاشياء القذرة التي تخرج من المخلوقين، ولاشيء لطيف كالنفس، ولايتشعب منه البدوات كالسنة، والنوم والخطرة والهم والحزن، والبهجة، والضحك، والبكاء، والخوف، والرجاء، والرغبة، والسأمة، والجوع، والشبع، تعالى أن يخرج منه شيء، وأن يتولد منه شيء كثيف، أو لطيف.

﴿ولم يولد﴾ لم يتولد من شيء ولم يخرج من شيء كما تخرج الاشياء الكثيفة من عناصرها كالشيء من الشيء والدابة من الدابة، والنبات من الارض، والماء من الينابيع، والثمار من الاشجار، ولا كما تخرج الاشياء اللطيفة من مراكزها كالبصر من العين، والسمع من الاذن، والشم من الانف، والذوق من الفم.[2]

---

(١) كلمة للامام علي بن ابي طالب (ع).

(٢) هذه الثلاثة من قبيل خروج القوة وظهورها في محلها لا خروجها الى خارج المحل كخروج قوة البصر الى خارج العين على القول بالشعاع، ويمكن ان تكون كذلك ولما يدركها الانسان.

والكلام من اللسان، والمعرفة،والتمييز من القلب.[1] وكالنار من الحجر، لا بل هو الله الصمد الذي لا من شيء، ولا في شيء، ولا على شيء ، مبدع الاشياء، وخالقها، ومنشيء الاشياء بقدرته، يتلاشى ما خلق للفناء بمشيئته، ويبقى ما خلق للبقاء بعلمه.[2] فذلكم الله الصمد الذي لم يلد ولم يولد، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، ولم يكن له كفوا أحد».[3]

وهكذا، فالله جل و علا «لم يوجد له مماثل او مكافيء، لا في حقيقة الوجود، ولا في حقيقة الفاعلية، ولا في أية صفة من الصفات الذاتية».[4] «لا يناظره شيء، ولا يشبهه، فذاته تعالى بذاته، ولذاته من غير استناد الى غيره، واحتياج الى سواه».[5]

مصادر الدراسة:

١ ـ تفسير الجلالين: جلال الدين محمد بن احمد المحلي وجلال الدين السيوطي.

٢ ـ اسباب النزول: للشيخ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي.

٣ ـ تفسير الكشاف: للزمخشري.

٤ ـ تفسير الميزان: السيد محمد حسين الطباطبائي.

---

(١) كخروج النور من النير.

(٢) علق عليه السلام تلاشي الفاني بالمشيئة وبقا الباقي بالعلم لمناسبة المشيئة المحدثة لما يفني والعلم القديم لما يبقى لانها في مذهب اهل البيت عليهم السلام محدثة، والا فلا شي عن تعلق العلم والمشيئة.

(٣) التوحيد – الشيخ الصدوق ص ٩١.

(٤) في ظلال القرآن (تفسير سورة الاخلاص).

(٥) الميزان في تفسير القرآن (تفسير سورة الاخلاص).

٥ ـ مجمع البيان في تفسير القرآن: الشيخ الطبرسي.

٦ ـ التوحيد: للشيخ الصدوق.

٧ ـ تفسير شبر: السيد عبد الله شبر.